"فَلسَفَتُنا" بأسلوبٍ وبَيَانٍ وَاضِحٍ

(٢)

السيد الصرخي الحسني

سلسلة البحوث الفلسفيّة
(٢)

"فَلسَفَتُنا" بأسلوبٍ وبَيَانٍ وَاضِحٍ

(٢)

الإسلام ما بين الاستذكار الأفلاطونيّة والعقليّين والنظريّة الحسّيّة والماركسيّة

بيان وتوجيه وتعديل لما جاء في بحوث "فلسفتنا" للشهيد السيّد محمد باقر الصدر(قدس سره)

السيد الصرخي الحسني

أهم الموضوعات

- تساؤلاتٌ حول الإدراك..أساسُ المعرفة
- الإدراكُ..تصوّرٌ وتصديقٌ
- تداعي المعاني..نظريّةُ الحسِّيّين..إلغاءٌ للتصديق
- نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..قضايا متهافتةٌ
- النظريّةُ العقليّةُ..تهافتٌ تحليلًا وفلسفةً
- النظريّةُ الحسِّيّةُ..خطواتُ فشلِها
- النظريّةُ الحسّيّةُ..تَبَنّي الماركسيّة
- نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّة..اتّساقٌ مع البرهان والتجربة
- نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..البرهانُ والتجربةُ..التوافقات التصوريّة
- نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..إحساسٌ وابتكارٌ

إعداد

الدكتور حسين الساعدي **الدكتور حيدر الخزاعي**

حقوق الطبع محفوظة

"فلسفتنا" بأسلوب وبيان واضح (٢) السيد الصرخي الحسني	
الإعداد :	د. حسين الساعدي، د. حيدر الخزاعي
الطبعة:	الأولى
تاريخ الطباعة:	٢٠٢٠ م
الكمية:	٤٠٠٠ نسخة
المطبعة:	دار الاعتدال للطباعة والنشر والتوزيع
مكان الطباعة:	بيروت - لبنان

مطبوعات المركز الإعلامي لمكتب المرجع الديني الأعلى السيد الصرخي الحسني

المركز الإعلامي: 07703581707 | 07703702874

مدير مكاتب المرجعية: 0032466424728

المتحدث الرسمي للمرجعية: 07802700387

الناطق والمستشار القانوني: 07714957128

الناطق الإعلامي في أوربا: 0032466346958

مواقعنا:

المركز الإعلامي: www.al-hasany.com

موقع المرجعية: www.al-hasany.net

الإيميل: E-mail:publish@alhasany.com

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق العراقية ١٥٨٧ لسنة ٢٠٢٠ م

المقدّمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

صدق الله العظيم

وقال مولانا أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين (عليه الصلاة والتسليم): ((بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ... لا تَصْحَبُهُ اَلْأَوْقَاتُ، وَلا تَرْفِدُهُ اَلْأَدَوَاتُ، سَبَقَ اَلْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَاَلْعَدَمَ وُجُودُهُ وَاَلاِبْتِدَاءَ أَزَلُهُ... لا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ اَلْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ اَلْآلاَتُ إِلَى نَظَائِرِهَا... وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ، إِذًا لَتَفَاوَتَت ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، وَإِذًا لَقَامَت آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ... لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ... وَلا يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلا نِهَايَةٌ، وَلا انْقِطَاعٌ وَلا غَايَةٌ، وَلا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ... يُخْبِرُ لا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ، يَقُولُ وَلا يَلْفِظُ... يَقُولُ

(١) سورة فصّلت، الآية٥٣.

لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ، لا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا... لا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ))[1].

وبعد:

أوّلًا: لا يخفى أنَّ المجتمع الإسلامي يعيش المآسي المريرة خاصّة بعدما أُشيع الجهل والفتن ومضلّاتها والمفاسد وسوء الأخلاق والتخنّث والإلحاد والتطرّف والإرهاب والتشرذم والتناحر، فأصبحت الفتن والانحرافات تعصف بالمجتمع الإسلامي الذي مزّقته التيّارات المنحرفة وأخذته ذات اليمين تارة وذات الشمال تارة أخرى، وجعلته كريشة في مهبّ الريح، إلى أنْ سلَّم عنانه لأفكار لا تمتّ بأيّ صلة إلى إنسانيّته وتراثه وثقافته.

ثانيًا: وانطلاقًا مِن الضرورات الدينيّة والأخلاقيّة فإنَّ أرباب العلم وحملتَهُ وأرباب الهداية والصلاح والفضائل أخذوا على عاتقهم تحمّل المسؤوليّة الإنسانيّة والأخلاقيّة والعلميّة والشرعيّة تجاه الإنسان والشريعة، لإعادة المجتمع إلى محور الفكر البنّاء والأخلاق الفاضلة.

ثالثًا: وعلى هذا الأساس تصدّى الأستاذ الصرخي- بوصفه مرجعًا دينيًّا أعلى ومفكّرًا إسلاميًّا معاصرًا- لتحمّل أعباء المسؤوليّات العظيمة، وضمن مشروعه العلمي التوعوي في الدرس والبحث والوسطيّة

(١) نهج البلاغة، شرح: الشيخ محمد عبده، مطبعة النهضة، نشر دار الذخائر، قم، ط١، ١٤١٢هـ، ج٢، ص١١٩-١٢٠.

والاعتدال وردّ الشبهات، وتجلّى ذلك بصورة واضحة في سلسلة محاضراته وسلسلة بحوثه في الأصول والفقه والأخلاق والتربية والتاريخ والعقائد والتفسير والمنطق والحوار والمنهج والسيرة الذاتيّة وغيرها، التي أنجزها ضمن مشروعه الكبير هذا.

رابعًا: وفي السياق نفسه، نجد السيد الأستاذ ينبري ليتصدّى لتقويض الفكر الإلحادي الذي شاع وتسرَّب إلى المجتمع الإسلامي خاصّة شريحة الشباب لأسباب عديدة غير خافية على المحلِّل الموضوعي لأحداث وتداخلات واقع المجتمع الإسلامي المعاصر بكلّ تطوّراته الخطيرة على مستوى العامّة وعلى مستوى النُخَب بكلّ مسمّياتهم مِن رجال دين وغيرهم مِن مثقّفين وكتّاب وباحثين... إلخ.

خامسًا: ومِن الواضح أنَّ النقاش مع الإلحاديين لا يكون على أساس الموروث العقائدي مِن آياتٍ قرآنيّة كريمة أو أحاديث نبويّة شريفة، بل يكون النقاش معهم معتمدًا على حوار عقلي وأدلّة فلسفيّة ملزمة للطرف المقابل.

سادسًا: يمتلك الأستاذ الصرخي منظومة علميّة ومشروعًا توعويًّا متكاملًا يؤمن بالحوار الهادف مع ضرورة احترام آراء الآخرين، فضلًا عن إيمانه بالعلم والبرهان وإلزام الحجّة وترسيخها في أذهان الجميع، نابذًا العصبيّة والإرهاب والتفرقة والتطرّف والتكفير وإقصاء الآخرين، وهو في هذا المقام يقدِّم للقارئ الكريم سلسلة جديدة مِن سلاسل البحوث العلميّة، وهي (سلسلة البحوث الفلسفيّة)، التي تتضمّن موضوعات عصريّة مهمّة مترابطة تؤسِّس إلى تحصين المجتمع تحصينًا فكريًّا لاسيما طبقة الشباب الذي صار ضحيّة لمؤامرات عالميّة ودعايات ممنهجة غايتها استقطابه، ونتج عن ذلك أنْ التجأ بعضهم إلى الإلحاد بينما سلك آخرون طرائق

الإرهاب والمنظّمات الإجراميّة، وبات كثير منهم في فراغ فكريّ، وفي النهاية صارت المشكلة مترابطة الأطراف، وهذا ما يستوجب الترابط في مرحلة العلاج، وعلى هذا الأساس قدّم سماحة سيدنا الأستاذ- في هذه السلسلة- علاجًا فكريًّا مترابط الأطراف تناول في بعض حلقاتها ("فلسفتنا" بأسلوب وبيان واضح) ضمن منهجيّة وتبويب جديدين، وفي حلقاتٍ أخرى مِن السلسلة تناول التوظيف والأدلجة للنصوص الدينيّة في بحثه الموسوم: (الشباب بين إقصاء العقل وتوظيف النصّ الديني لصالح التكفير والإرهاب ثم الإلحاد).

سابعًا: البحث الذي بين أيدينا لسماحة سيدنا الأستاذ (دام ظله) يمثّل حلقة مِن حلقات بحث ("فلسفتنا" بأسلوب وبيان واضح)، وهو عبارة عن متنٍ لكتاب "فلسفتنا" للشهيد السيّد محمد باقر الصدر (قُدِّسَ سِرُّهُ)، مع توجيه وتعديل وتوضيح وإضافة بعض الأفكار والآراء عليه ضمن منهج بحثي واضح ومبسَّط يمكن لأيّ شخص مِن المجتمع أنْ يفهمها ولو كان متسلِّحًا بمستوى ثقافي وعلمي بسيط، وقد تضمَّن البحث آراء السيّد الأستاذ (دام ظلّه) وتعليقاته التي أُدرجت ضمن سياقات الكلام، وعليه يمكن القول إنَّ البحث يُعَبِّر عن آراء الأستاذ بصورة عامَّة إمَّا بالإمضاء أو التعديل والتوجيه أو بإضافة ما هو مختلف وجديد.

ثامنًا: ينقسم بحث (**"فلسفتنا" بأسلوب وبيان واضح**) إلى حلقات عدّة، فأمّا الحلقة الأولى، فهي (**الإسلام ما بين الديمقراطيّة الرأسماليّة والاشتراكيّة والشيوعيّة**)، وأمّا الحلقة الثانية، فهي (**الإسلام ما بين الاستذكار الأفلاطونيّة والعقليّين والنظريّة الحسّيّة والماركسيّة**)، وسيتبعها بعون الله (تعالى) حلقات عدّة تدخل تحت عنواناتٍ أخرى، والتي ستتناول بحوثًا مثل المصدر الأساس للمعرفة

وقيمة المعرفة وأهم المذاهب الفلسفيّة في قيمة المعرفة فضلًا عن النسبيّة التطوريّة ونظريّة المعرفة في "فلسفتنا"، كما وتتناول أمورًا فلسفيّة التي منها المفاهيم الفلسفيّة للعالم كالماديّة والمثاليّة والإلهيّة، والديالكتيك (الجدل) الماركسي وخطوطه الأساس خاصّة ما يرتبط بحركة التطوّر وتناقضاته وقفزاته، كما تتناول مبدأ العليّة والقضايا المبتنية عليه فضلًا عمَّا يرتبط بالمادّة مِن بحوث فلسفيّة ووجدانيّة وفيزيائيّة، وأخيرًا سيُبحث في الإدراك والجوانب العلميّة في دراسته ومفهومه الفلسفي والجانب الروحي مِن الإنسان والمنعكس الشرطي والإدراك.

تاسعًا: البحث فيه جانب نقدي مهم وكبير، ويفتح الآفاق لمزيد مِن النقد خاصّة في موضوعة نظريّة المعرفة، حيث تُثار استفهامات كثيرة تفتح أبوابًا للبحث، فمثلًا، هل يصلح الاتجاه الذاتي الذي جاء به الشهيد الصدر (رحمه الله) أنْ يكون قسمًا ثالثًا أو نظريّة ثالثة مستقلّة في مقابل المذهب العقلي والمذهب التجريبي؟!! فإذا كان التجريبيّون ينكرون أيَّ معرفة عقليّة أوليّة، فهل ينكر العقليّون كلّ معرفة تجريبيّة؟!! وهل يمكن إثبات إنكارهم ورفضهم ذلك مع أنَّ النظريّة التجريبيّة كنظريّة جاءت متأخِّرة عن النظريّة العقليّة بمئات السنين؟!! وهل يتّفق العقليّون على عدد المعارف الأوّليّة أو يختلفون في تحديدها وعددها؟!! فإذا كان العقليّون لا ينكرون المعارف التجريبيّة أو لا ينكرون إمكان ذلك أو لم يثبت أنّهم أنكروا ذلك، ففي هذه الحال لا تخرج نظريّة الاتّجاه الذاتي عن كونها عقليّة مع اختلاف مع بقيّة العقليين في بعض التحديدات والتفسيرات!!! هذه استفهامات وإشكالات عامَّة وتوجد إشكالات على الاتجاه الذاتي نفسه، فهل يثبت بما هو أو لا بُدَّ مِن الرجوع إلى المعارف العقليّة لإثباته؟!! وبمعنى تقريبي للاستفهامات فإنَّ المذهب الذاتي لا

يكون مقابلًا للمذهب العقلي، فمثلًا يكون التقسيم: ١. اتجاه تجريبي ٢. اتجاه عقلي موضوعي ٣. اتجاه عقلي ذاتي (أو موضوعي ذاتي)، فما عرضه الشهيد الصدر يرجع للاتجاه العقلي، فهو قسم مِن أقسامها وليس قسيمًا لها.

عاشرًا: تنقسم الحلقة الثانية (**الإسلام ما بين الاستذكار الأفلاطونيّة والعقليّين والنظريّة الحسّيّة والماركسيّة**)، التي بين أيديكم، إلى ستة مباحث، فأمَّا المبحث الأوّل، فهو: تساؤلاتٌ حول الإدراك..أساسُ المعرفة، وهو ينقسم إلى مطلبين، المطلب الأوّل: الإدراكُ..تصوّرٌ وتصديقٌ، والمطلب الثاني: تداعي المعاني..نظريّةُ الحسِّيِّين..إلغاءٌ للتصديق.

وأمَّا المبحث الثاني، فهو: المصدرُ الأساس للتصوّر..تصوّرٌ بسيطٌ، وهو ينقسم إلى نقطتين، النقطةُ الأولى: المعاني التصوّريّةُ المتنوّعةُ..بسيطةٌ ومركَّبةٌ، والنقطةُ الثانيةُ: التصوّراتُ البسيطةُ..تعدّدُ النظريّات في مصدرها.

وأمَّا المبحث الثالث، فهو: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..قضايا متهافتةٌ، وهو ينقسم إلى فرعين، الفرع الأوّل: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..تأسيسٌ على نظريّة المُثُل، والفرع الثاني: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..خللٌ في فِهم الكلّيّات.

وأمَّا المبحث الرابع، فهو: النظريّةُ العقليّةُ..تهافتٌ تحليلًا وفلسفةً، وهو ينقسم إلى جانبين، الجانب الأوّل: النظريّةُ العقليّةُ..تأسيسٌ على الإحساس والفطرة، والجانب الثاني: النظريّةُ العقليّةُ..افتقارٌ إلى مسوِّغات القبول.

وأمَّا المبحث الخامس، فهو: النظريّةُ الحسِّيّةُ..خطواتُ فشلِها، وهو ينقسم إلى محورين، المحور الأوّل: النظريّةُ الحسّيّةُ..اقتصارُ الذهن على التصرّف، والمحور الثاني: النظريّةُ الحسّيّةُ..تَبَنّي الماركسيّة.

وأمَّا المبحث السادس، فهو: نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّة..اتّساقٌ مع البرهان والتجربة، وهو ينقسم إلى موضوعين، الموضوع الأوّل: نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..إحساسٌ وابتكارٌ، والموضوع الثاني: نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..البرهانُ والتجربةُ..التوافقات التصوريّة.

وسيأتي الحديث عن بقيّة الحلقات تباعًا إنْ شاء الله تعالى، والحمد لله ربّ العالمين.

المبحثُ الأوّل:

تساؤلاتٌ حول الإدراك..أساسُ المعرفة

المطلبُ الأوّلُ: الإدراكُ..تصوّرٌ وتصديقٌ

تدور حول المعرفة الإنسانيّة مناقشات فلسفيّة حادّة تحتلّ مركزًا رئيسًا في الفلسفة وخاصّة الفلسفة الحديثة، فهي نقطة الانطلاق الفلسفي لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعالم، فما لم تُحدَّد مصادر الفكر البشري ومقاييسه وقِيَمُه لا يمكن القيام بأيّة دراسة مهما كان نوعها.

وإحدى تلك المناقشات الضخمة هي: المناقشة التي تتناول مصادر المعرفة ومنابعها الأساس بالبحث والدرس، وتحاول أنْ تستكشف الركائز الأوّليّة للكيان الفكري الجبّار الذي تملكه البشريّة، فتجيب بذلك على هذا السؤال: كيف نشأت المعرفة عند الإنسان؟ وكيف تكوّنت حياته العقليّة بكلّ ما تزخر به مِن أفكار ومفاهيم؟ وما هو المصدر الذي يمدّ الإنسان بذلك السيل مِن الفكر والإدراك؟

إنّ الإنسان- كلّ إنسان- يعلم أشياء عديدة في حياته، وتتعدّد في نفسه أنواع مِن التفكير والإدراك، ولا شكّ أنّ كثيرًا مِن المعارف الإنسانيّة ينشأ بعضها عن بعض، فيستعين الإنسان بمعرفةٍ سابقةٍ على تكوينِ معرفةٍ جديدةٍ.

والمسألة هي: أنْ نضع يدنا على الخيوط الأوّليّة للتفكير، على الينبوع العامّ للإدراك بصورة عامّة.

الإدراكُ تصوّرٌ وتصديقٌ: يجب أنْ نعرف قبل كلّ شيء أنّ الإدراك ينقسم بصورة رئيسة إلى نوعين:

١- **التصوّر:** وهو الإدراك الساذَج، كتصوّرنا لمعنى الحرارة أو النور أو الصوت.

٢- **التصديق:** وهو الإدراك المنطوي على حكم، كتصديقنا بأنّ الحرارة طاقة مستورَدة مِن الشمس، وأنّ الشمس أنور مِن القمر، وأنّ الذرّة قابلة للانفجار.

المطلبُ الثاني: تداعي المعاني..نظريّةُ الحسّيّين..إلغاءٌ للتصديق

لبعض الفلاسفة الحسّيّين كـ(جون ستوارت ميل) نظريّة خاصّة في التصديق حاولوا بها تفسيره بتصوّرين متداعِيَيْن، فمردّ التصديق إلى قوانين تداعي المعاني، وليس المحتوى النفسي إلّا تصوّر الموضوع وتصوّر المحمول.

ولكنّ الحقيقة: أنّ تداعي المعاني يختلف عن طبيعة التصديق كلّ الاختلاف، فتداعي المعاني قد يتحقّق في كثير مِن المجالات ولا يوجد تصديق، فالرجال التاريخِيّون- الذين تَسْبِغُ عليهم الأساطير أنواعًا مِن البطولات- يقترن تصوّرهم في ذهننا بتصوّر تلك البطولات، وتتداعى التصوّرات، ومع ذلك فقد لا نُصدِّق بشيء مِن تلك الأساطير، فالتصديق- إذن- عنصرٌ جديدٌ يمتاز على التصوّر الخالص.

إنَّ عدم التمييز بين التصوّر والتصديق في كثيرٍ مِن الدراسات الفلسفيّة الحديثة، أدّى إلى جملة مِن الأخطاء، وجَعَل كثيرًا مِن الفلاسفة يدرسون

مسألة تعليل المعرفة والإدراك مِن دون أنْ يضعوا فارقًا بين التصوّر والتصديق!!! وستعرف أنّ النظريّة الإسلاميّة تُفصِّل بينهما، وتشرح المسألة في كلّ منهما بأُسلوب خاصّ.

ونبدأ الآن بالتصوّرات البشريّة لِدراسة أسبابها ومصادرها، ونتناول بعد ذلك التصديقات والمعارف.

المبحثُ الثاني:

المصدرُ الأساس للتصوّر.. تصوّرٌ بسيطٌ

النقطةُ الأولى: المعاني التصوّريّةُ المتنوّعةُ.. بسيطةٌ ومركّبةٌ

ونقصد بكلمة (الأساس) المصدر الحقيقي للتصوّرات والإدراكات البسيطة، ذلك أنّ الذهن البشري ينطوي على قسمين مِن التصوّرات:

القسم١: المعاني التصوّريّة البسيطة: كمعاني ((الوجود، الوحدة، الحرارة، البياض)) وما إلى ذلك مِن مفردات للتصوّر البشري.

القسم٢: المعاني التصوّريّة المركّبة: وهي التصوّرات الناتجة عن الجمع بين تلك التصوّرات البسيطة، فقد نتصوّر (جبلًا مِن تراب) ونتصوّر (قطعة مِن الذهب)، ثمّ نُركِّب بين هذين التصوّرين، فيحصل بالتركيب تصوّرٌ ثالثٌ وهو (تصوّر جبلٍ مِن الذهب)، فهذا التصوّر مركَّبٌ في الحقيقة مِن التصوّرين الأوّلَين، وهكذا ترجع جميع التصوّرات المركَّبة إلى مفردات تصوّريّة بسيطة.

النقطةُ الثانيةُ: التصوّراتُ البسيطةُ..تعدّدُ النظريّات في مصدرها

والمسألة التي نعالجُها هي: محاولة معرفة المصدر الحقيقي لهذه المفردات التصوّريّة وسبب انبثاق هذه التصوّرات البسيطة في الإدراك الإنساني، وهذه المسألة لها تأريخ مهمّ في جميع أدوار الفلسفة اليونانيّة والإسلاميّة والأُوروبيّة، وقد حصلت عبر تأريخها الفلسفي على عدّة حلول تتلخّص في النظريّات الآتية: ((نظريّة الاستذكار الأفلاطونيّة، والنظريّة العقليّة، والنظريّة الحسِّيّة، ونظريّة الانتزاع)).

المبحثُ الثالث:

نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة.. قضايا متهافتةٌ

الفرعُ الأوّلُ: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة.. تأسيسٌ على نظريّة المُثل[١]

نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة هي النظريّة القائلة بـ ((أنّ الإدراك عمليّة استذكار للمعلومات السابقة))، وقد ابتدع هذه النظريّة أفلاطون، وأقامها على فلسفته الخاصّة عن المُثُل وقِدَم النفس الإنسانيّة، فكان يعتقد: أ- أنّ النفسَ الإنسانيّة موجودةٌ بصورةٍ مستقلّةٍ عن البَدَن قبل وجوده، ب- ولَمّا كان وجود النفس هذا متحرّرًا مِن المادّة وقيودها تحرّرًا كاملًا، أُتيحَ لها الاتّصال بالمُثُل، أي: أتيحَ لها الاتصال بالحقائق المجرَّدة عن المادّة، وأمكنها العلم بها، جـ- وحين اضطرّت النفس إلى الهبوط مِن عالَمها المجرَّد للاتّصال بالبدن والارتباط به في دنيا المادّة، فَقَدَت بسبب ذلك كلّ ما كانت تعلمُهُ مِن تلك المُثُل والحقائق الثابتة، وذهلت عنها ذُهُولًا تامًّا، د- ولكنّها تبدأ باسترجاع إدراكاتها عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصّة والأشياء الجزئيّة؛ لأنّ هذه المعاني والأشياء كلّها ظِلالٌ وانعكاساتٌ لتلك المُثُل والحقائق الأزليّة الخالدة في العالَم الذي كانت تعيش النفس فيه، فمتى أَحَسَّت بمعنى خاصّ انتقلت فورًا إلى الحقيقة

---

(١) يراجَع للتفصيل والتوضيح: صدر الدين الشيرازي، الأسفار الأربعة، ٢/ ٤٦، الفصل٩ مصطفى غالب، أفلاطون، ٤١ محمّد عبد الرحمن مرحبا، مِن الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة، ١٢٦ ـ ١٣٠.

المثاليّة التي كانت تدركُها قبل اتّصالها بالبدن، هـ- وعلى هذا الأساس يكون إدراكنا للإنسان العامّ- أي: لمفهوم الإنسان بصورة كلّيّة- عبارة عن استذكار لحقيقة مجرَّدة كنّا قد غَفَلْنا عنها، وإنّما استذكرناها بسبب الإحساس بهذا الإنسان الخاصّ أو ذاك مِن الأفراد التي تعكس في عالَم المادّة تلك الحقيقة المجرَّدة.

فالتصوّرات العامّة سابقة على الإحساس والإدراك في عالَم المادة، ولا يقوم الإحساس إلّا بعمليّة استرجاع واستذكار لها، والإدراكات العقليّة لا تتعلّق بالأُمور الجزئيّة التي تدخل في نطاق الحسّ، وإنّما تتعلّق بتلك الحقائق الكلّيّة المجرَّدة، وهذه النظريّة ترتكز على قضيّتين فلسفيّتين:

القضيّة١: إنّ النفسَ موجودةٌ قَبْلَ وجود البَدَن، في عالَم أسمى مِن المادّة.

القضيّة٢: إنّ الإدراك العقلي عبارةٌ عن إدراك الحقائق المجرَّدة الثابتة في ذلك العالَم الأسمى، التي يَصطلح عليها أفلاطون بكلمة (المُثُل).

الفرعُ الثاني: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..خللٌ في فهم الكلّيّات

وكلتا القضيّتين خاطئتان كما أوضح ذلك ناقدو الفلسفة الأفلاطونيّة:

أمّا القضيّة١ فباطلة مِن حيث: أ- إنّ النفس في مفهومها الفلسفي المعقول ليست شيئًا موجودًا بصورةٍ مجرَّدةٍ قبل وجود البدن ، ب- بل هي نتاج حركة جوهريّة في المادّة، جـ- تبدأ النفس بها مادّيّة متّصفة بخصائص المادّة وخاضعة لقوانينها، د- وتصبح بالحركة والتكامل وجودًا مجرَّدًا عن المادّة لا يتّصف بصفاتها ولا يخضع لقوانينها، وإن كان خاضعًا لقوانين الوجود العامة.

إنّ هذا المفهوم الفلسفي عن النفس هو المفهوم الوحيد الذي يستطيع أنْ يُفسِّر المشكلة، ويُعطي إيضاحًا معقولًا عن العلاقة القائمة بين النفس والمادّة، بين النفس والبدن، وأمّا المفهوم الأفلاطوني- الذي يَفترِض للنفس وجودًا سابقًا على البدن- فهو أعجز ما يكون عن تفسير هذه العلاقة، ويعجَز عن تعليل الارتباط القائم بين البدن والنفس، ويعجز عن إيضاح الظروف التي جعلت النفس تهبط مِن مستواها إلى المستوى المادّي.

وأمّا القضيّة٢ فباطلة مِن حيث: إنّ الإدراك العقلي يمكن إيضاحُه مع إبْعادِ فكرة المُثل عن مجال البحث بما شرحه أرسطو في فلسفته: مِن أنّ المعاني العامّة التي يُدرِكها العقل هي نفسها المعاني المحسوسة بعد تجريدها عن الخصائص المميِّزة للأفراد واستبقاء المعنى المشترك، فليس الإنسانُ العامّ الذي نُدركُه حقيقةً مثاليّةً سبقَ أنْ شاهدناها في عالم

أسْمى، بل هو صورة هذا الإنسان أو ذاك بعد إجراء عمليّة التجريد عليها، واستخلاص المعنى العامّ منها.

المبحثُ الرابع:

النظريّةُ العقليّةُ.. تهافتٌ تحليلاً وفلسفةً

الجانبُ الأوّل: النظريّةُ العقليّةُ..تأسيسٌ على الإحساس والفطرة

وهي لبعض مِن كبار فلاسفة أوروبا كـ (ديكارت)[١] و(كانت)[٢] وغيرهما، وتتلخّص هذه النظريّة في الاعتقاد بوجود منبعين للتصوّرات، الإحساس والفطرة:

منبعُ تصورات١- الإحساس: فنحن نتصوّر الحرارة والنور والطَعَم والصوت لأجل إحساسنا بذلك كلّه، فالحسّ على أساس هذه النظريّة مصدر فهم للتصوّرات والأفكار البسيطة، ولكنّه ليس هو السبب الوحيد، بل هناك الفطرة التي تَبعَثُ في الذهن طائفةً مِن التصوّرات.

منبعُ تصوّرات٢- الفطرة: بمعنى، أنّ الذهن البشري يملك معاني وتصوّراتٍ لم تنبثق عن الحسّ، وإنّما هي ثابتة في صميم الفطرة، فالنفس تَسْتَنْبِطُ مِن ذاتها، وهذه التصوّرات الفطريّة: أ- عند (ديكارت) هي فكرة (الله، النفس، الامتداد، الحركة) وما إليها مِن أفكار تتميّز بالوضوح الكامل في العقل البشري، ب- وأمّا عند (كانت) فالجانب الصوري

---

(١) يراجَع: مدخل إلى فلسفة ديكارت، ١٠٩- ١١٤.

(٢) يراجَع: زكريا إبراهيم، كانت أو الفلسفة النقديّة، ٤٦ - ٨٢.

للإدراكات والعلوم الإنسانيّة كلّه فطري بما يشتمل عليه مِن صورتَي الزمان والمكان والمقولات الاثنتي عشرة المعروفة عنه.

والذي اضطرّ العقليين إلى اتّخاذ هذه النظريّة في تعليل التصوّرات البشريّة هو: أنّهم لم يجدوا لطائفة مِن المعاني والتصوّرات مسوِّغًا لانبثاقها عن الحسّ؛ لأنّها معانٍ غير محسوسة، فيجب أنْ تكون مستنبَطة للنفس استنباطًا ذاتيًّا مِن صميمها، ويتّضح مِن هذا: أنّ الدافع الفلسفي إلى وضع النظريّة العقليّة يزول تمامًا إذا استطعنا أنْ نُفسِّر التصوّرات الذهنيّة تفسيرًا متماسكًا مِن دون حاجة إلى افتراض أفكار فطريّة.

الجانبُ الثاني: النظريّةُ العقليّةُ.. افتقارٌ إلى مسوِّغات القبول

تفنيدُ النظريّة العقليّة: يمكننا تفنيد النظريّة العقليّة عن طريقين، تحليلي وفلسفي:

الطريقُ التحليلي: تحليل الإدراك تحليلًا يُرجِعُه برُمَّتِه إلى الحسّ، ويُيَسِّر فَهْم كيفيّة تَوَلُّد التصوّرات كافّة عنه، فإنّ مثل هذا التحليل يجعل نظريّة الأفكار الفطريّة بلا مسوِّغ مطلقًا؛ لأنّها كانت ترتكز على فصل بعض المعاني عن مجال الحسّ فصلًا نهائيًّا، فإذا أمكن تعميم الحسّ لشتّى ميادين التصوّر لم تبقَ ضرورة للتصوّرات الفطريّة، وهذا الطريق هو الذي اتخذه (جون لوك) للردِّ على (ديكارت) ونحوه مِن العقليين، وسار عليه رجال المبدأ الحسّي مثل (باركلي) و(دافيد هيوم) بعد ذلك.

الطريقُ الفلسفي: هو الأُسلوب الفلسفي للردِّ على التصوّرات الفطريّة، ويرتكز على قاعدة: ((أنّ الآثار الكثيرة لا يمكن أنْ تصدر عن البسيط

باعتباره بسيطًا))، بمعنى، أنّ الكثرة لا تصدر عن الواحد البسيط، والنفس بسيطة فلا يمكن أنْ تكون سببًا بصورة فطريّة لعدّةٍ مِن التصوّرات والأفكار، بل يجب أنْ يكون وجود هذا العدد الضخم مِن التصوّرات والإدراكات لدى النفس بسبب عوامل خارجيّة كثيرة، وهي آلات الحسّ وما يطرأ عليها مِن مختلف الأحاسيس.

وبكلمةٍ أكثر تفصيلًا: أنّ كثرة الآثار تكشف عن أحد أُمور: (١): إمّا كثرة الفاعل، (٢): وإمّا كثرة القابل، (٣): وإمّا التَرَتّب المنطقي بين الآثار ذواتها، (٤): وإمّا كثرة الشرائط.

وفي مسألتنا: أ- لا شكّ في أنّ التصوّرات التي نبحث عن منشئها كثيرة ومتنوّعة.

ب- وأنّه لا كثرة في الفاعل والقابل؛ لأنّ الفاعل والقابل للتصوّرات هو النفس، والنفس بسيطة.

جـ- ولا تَرَتّب- أيضًا- بين التصوّرات.

د- فلا يبقى إلّا أنْ نأخذ بالتفسير الأخير، وهو: أنْ تستند التصوّرات الكثيرة إلى شرائط خارجيّة، وهي الإحساسات المختلفة المتنوّعة.

تفنيدُ التفنيد: نَقْدُ هذا البرهان بصورة كاملة يتطلّبُ منّا أنْ نشرحَ القاعدة التي قام على أساسها، ونعطي إيضاحًا عن حقيقة النفس وبساطتها، وهذا ما لا يتّسع له مجالنا الآن، ولكن يجب أنْ نُشير إلى أمور:

أوّلًا - إنّ هذا البرهان- إذا أمكن قبوله- فهو لا يقضي على نظريّة الأفكار الفطريّة تمامًا لأنّه:

أ- إنّما يُدلِّل على عدم وجود كثرة مِن الإدراكات قد استنبطتها النفس بالفطرة، ب- ولا يُبرهِن على أنّ النفس لا تملك بفطرتها شيئًا محدودًا مِن التصوّرات يتّفق مع وحدتها وبساطتها، وتتولّد عنه عدّةٌ أُخرى مِن التصوّرات بصورةٍ مستقلّةٍ عن الحسّ.

ثانيًا- إنّ النظريّة العقليّة إذا كانت تعني وجود أفكارٍ فطريّةٍ بالفعل لدى النفس الإنسانيّة، أمكن للبرهان الذي قدّمناه أنْ يردَّ عليها قائلًا: إنّ النفس بسيطةٌ بالذات، فكيف وَلَّدَت ذلك العدد الضخم مِن الأفكار الفطريّة؟!! بل لو كان العقليّون يجنحون إلى الإيمان بذلك حقًّا لكفى وجداننا البشري في الردّ على نظريّتهم؛ لأنّنا جميعًا نعلم أنّ الإنسان لحظة وجوده على وجه الأرض لا توجد لديه أيّة فكرة مهما كانت واضحة وعامّة في الذهنيّة البشريّة ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ثالثًا- يوجد تفسيرٌ آخر للنظريّة العقليّة، ويتلخّص في: أ- اعتبار الأفكار الفطريّة موجودةً في النفس بالقوّة، ب- وتكتسب صفة الفعليّة بتطوّر النفس وتكاملها الذهني، جـ- فليس التصوّر الفطري نابعًا مِن الحسّ، وإنّما يحتويه وجودُ النفس لا شعوريًّا، د- وبتكامل النفس يُصبح إدراكًا شعوريًّا واضحًا، كما هو شأن الإدراكات والمعلومات التي نستذكرها فنثيرها مِن جديد بعد أنْ كانت كامنةً وموجودةً بالقوّة، والنظريّة العقليّة على ضوء هذا التفسير لا يمكن أنْ تُرَدّ بالبرهان الفلسفي أو الدليل العلمي السابق ذِكرهما.

---

(١) سورة النحل، الآية٧٨.

المبحثُ الخامسُ:

النظريّةُ الحسِّيّةُ.. خطواتُ فشلِها

المحورُ الأوّلُ: النظريّةُ الحسّيّةُ.. اقتصارُ الذهن على التصرّف

وهي النظريّة القائلة: {١- إنّ الإحساس هو المموّن الوحيد للذهن البشري بالتصوّرات والمعاني، ٢- والقوّة الذهنيّة هي القوّة العاكسة للإحساسات المختلفة في الذهن}، فنحن حين نحسّ بالشيء نستطيع أنْ نتصوّره، أي نستطيع أنْ نأخذ صورةً عنه في ذهننا، فالمعاني التي يمتدّ إليها الحسّ لا يمكن للنفس ابتداعها وابتكارها ذاتيًّا وبصورة مستقلّة.

وبناءً على هذه النظريّة فإنّه ليس للذهن إلّا التصرّف في صور المعاني المحسوسة، فيتصرّف فيها إمّا بالتركيب والتجزئة وإمّا بالتجريد والتعميم:

أ- التركيبُ والتجزئةُ: بأنْ يُرَكِّب الذّهْنُ بين تلك الصور، فيتصوّر جبلًا مِن ذهب، أو يجزّئ الواحدة منها، فيجزّئ الشجرة التي أدركها إلى قِطَعٍ وأجزاء.

ب- التجريدُ والتعميمُ: بأنْ يفرز الذهنُ خصائصَ الصورة ويجرّدها عن صفاتها الخاصّة، ليصوغ منها معنىً كلّيًّا، كما إذا تصوّر زيدًا وأسقطَ مِن الحساب كلّ ما يمتاز به عن عمرو؛ فإنّ الذهن بعمليّة الطرح هذه يستبقي معنىً مجرَّدًا يصدق على زيد وعمرو معًا.

ولعلّ المُبشِّر الأوّل بهذه النظريّة الحسّيّة هو (جون لوك) الفيلسوف الإنكليزي الكبير الذي بزغ في عصر فلسفي زاخر بمفاهيم (ديكارت) عن الأفكار الفطريّة، فبدأ في تفنيد تلك المفاهيم، ووضع لأجل ذلك دراسةً مفصَّلةً للمعرفة الإنسانيّة في كتابه (مقالة في التفكير الإنساني)، وحاول في هذا الكتاب إرجاع جميع التصوّرات والأفكار إلى الحسّ، وقد شاعت هذه النظريّة بعد ذلك بين فلاسفة أوروبا، وقضت إلى حدٍّ ما على نظريّة الأفكار الفطريّة، وانساقَ معها جملة مِن الفلاسفة إلى أبعد حدودها حتّى انتهت إلى فلسفات خطرة جدًّا، كفلسفة (باركلي) و(دافيد هيوم) كما سوف نتبيّن ذلك إنْ شاء الله تعالى[1].

المحورُ الثاني: النظريّةُ الحسّيّةُ..تَبَنّي الماركسيّة

والماركسيّة تبنّت هذه النظريّة في تعليل الإدراك البشري، تماشيًا مع رأيها في الشعور البشري، وأنّه انعكاسٌ للواقع الموضوعي؛ فكلّ إدراك يرجع إلى انعكاس لواقع معيَّن، ويحصل هذا الانعكاس عن طريق الإحساس، وما يخرج عن حدود الانعكاسات الحسّيّة لا يمكن أنْ يرتبط به الإدراك أو الفكر، فنحن لا نتصوّر إلّا إحساساتنا التي تُشير إلى الحقائق الموضوعيّة القائمة في العالم الخارجي:

---

(١) يراجَع: أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصّة الفلسفة الحديثة: ١/ ١٣٠- ١٣٥، عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، ١٦٨، توفيق الطويل، أُسس الفلسفة، ٣٥٥.

- قال جورج بوليتزير: ((ولكن ما هي نقطة البدء في الشعور أو الفكر؟ إنّها الإحساس، ثمّ إنّ مصدر الإحساسات (التي يعالجها الإنسان) يكون بدافعٍ مِن احتياجاته الطبيعيّة))[١].

وقال أيضًا: ((الرأي الماركسي يعني- إذن- أنّ محتوى شعورنا ليس له مِن مصدر سوى الجزئيّات الموضوعيّة التي تقدِّمها لنا الظروف الخارجيّة التي نعيش فيها، وتُعطى لنا في الإحساسات، وهذا كلّ ما في الأمر))[٢].

- وقال ماو تسي تونغ (موضِّحًا الرأي الماركسي في المسألة): ((إنّ مصدر كلّ معرفة يكمن في إحساسات أعضاء الحسّ الجسميّة في الإنسان للعالم الموضوعي الذي يحيطه))[٣].

وقال أيضًا: ((وإذن: أ- فالخطوة الأُولى في عمليّة اكتساب المعرفة هي: الاتّصال الأوّلي بالمحيط الخارجي، مرحلة الأحاسيس، ب- الخطوة الثانية هي: جمع المعلومات التي نحصل عليها مِن الإدراكات الحسّيّة، وتنسيقها وترتيبها))[٤].

وتُركِّز النظريّة الحسّيّة على التجربة، فقد دَلّلت التجارب العلميّة على أنّ الحسّ هو الإحساس الذي تنبثق عنه التصوّرات البشريّة، فمَن حُرِمَ نوعًا مِن أنواع الحسّ فهو لا يستطيع أنْ يتصوّر المعاني ذات العلاقة بذلك الحسّ الخاصّ، ولذلك قيل منذ القديم: "مَن فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلمًا".

---

(١) المادّية والمثالية في الفلسفة: ٧٥.

(٢) المصدر السابق، ٧١ - ٧٢.

(٣) حول التطبيق، ١١.

(٤) المصدر السابق، ١٤.

وهذه التجارب- إذا صَحّت- إنّما تبرهن علميًّا على أنّ الحسّ هو الينبوع الأساس للتصوّر، فلولا الحسّ لَما وُجِدَ تصوّرٌ في الذهن البشري، ولكنّها لا تَسلب عن الذهن قدرة توليد معانٍ جديدة مِن المعاني المحسوسة، وهذه المعاني الجديدة لَم تُدرَك بالحسّ، فليس مِن الضروري أنْ يكون قد سبق تصوّراتَنا البسيطة جميعًا الإحساسُ بمعانيها كما تزعم النظريّة الحسّيّة.

فالحسّ على ضوء التجارب الآنفة الذِّكر هو البنية الأساس التي يقوم على قاعدتها التصوّرُ البشري، ولا يعني ذلك تجريد الذهن عن الفعّاليّة وعن ابتكار تصوّراتٍ جديدةٍ على ضوء التصوّرات المستورَدة مِن الحسّ.

المحورُ الثالثُ: النظريّةُ الحسّيّةُ..خطواتُ إثباتِ فشلِها

فَشَلُ النظريّة الحسّيّة:

يمكننا أنْ نوضِّح فشل النظريّة الحسّيّة في خَطوات:

أ- الحسّيّون عندهم محاولات لإرجاع جميع مفاهيم التصوّر البشري إلى الحسّ: على ضوء دراسة عدّة مِن مفاهيم الذهن البشري كالمفاهيم التالية: العلّة والمعلول، الجوهر والعرض، الإمكان والوجوب، الوحدة والكثرة، الوجود والعدم، وما إلى ذلك مِن مفاهيم وتصوّرات.

ب- نحن جميعًا نعلم أنّ الحسّ إنّما يقع على ذات العلّة وذات المعلول: فنُدرِك ببصرنا سقوط القلم على الأرض إذا سُحِبت مِن تحته المنضدة

التي وُضِع عليها، ونُدرِك باللمس حرارة الماء حين يوضع على النار، وكذلك نُدرِك تمدّد الفلزّات في جوّ حار.

جـ- في هذه الأمثلة نحسّ بظاهرتين متعاقبتين، ولا نحسّ بصلة خاصّة بينهما، هذه الصلة التي نسمّيها بالعلّيّة، ونعني بها: تأثير إحدى الظاهرتين في الأُخرى، وحاجة الظاهرة الأخرى إليها لأجل أنْ تُوجَد.

د- المحاولات التي ترمي إلى تعميم الحسّ للعلّيّة نفسها وعدِّها مبدأ حسّيًّا، هي محاولات تقوم على تجنّب العمق والدقّة في معرفة ميدان الحسّ وما يتّسع له مِن معانٍ وحدود.

هـ- فمهما نادى الحسّيّون بأنّ التجارب البشريّة والعلوم التجريبيّة- القائمة على الحسّ- هي التي توضّح مبدأ العلّيّة، وهي التي تجعلنا نحسّ بصدور ظواهر مادّيّة معيّنة مِن ظواهر أخرى مماثلة، أقول: مهما نادوا بذلك، فلن يحالفَهم التوفيق ما دمنا نعلم أنّ التجربة العلميّة لا يمكن أنْ تَكْشف بالحسّ إلّا الظواهر المتعاقبة، فنستطيع بوضع الماء على النار أنْ نُدرِك حرارة الماء وتَضَاعُفَ هذه الحرارة، وأخيرًا نحسّ بغليان الماء، وأمّا أنّ هذا الغليان منبثقٌ عن بلوغ الحرارة درجة معيّنة، فهذا ما لا يوضّحه الجانب الحسّي مِن التجربة.

و- وإذا كانت تجاربنا الحسّيّة قاصرة عن كشف مفهوم العلّيّة فكيف نشأ هذا المفهوم في الذهن البشري، وصرنا نتصوّرُه ونفكّر فيه؟!!

الحسّيّون يُنكرون مبدأ العلّيّة: كان (دافيد هيوم)- أحدّ علماء رجال المبدأ الحسّي- أدقّ مِن غيره في تطبيق النظريّة الحسّيّة، فقد عَرَف أنّ العلّيّة بمعناها الدقيق لا يمكن أنْ تُدرَك بالحسّ فأنكرَ مبدأ العلّيّة وأرجعَها إلى قاعدة (ظاهرة، قانون) تداعي المعاني، قائلًا: إنّي أرى كرة

البلياردو تتحرّك فتصادف كرة أخرى فتتحرّك هذه، وليس في حركة الأولى ما يظهرني على ضرورة تحرّك الثانية، والحسّ الباطني يَدُلُّني على أنّ حركة الأعضاء تحصل في تعقّب أمر الإرادة، ولكنّ الحسّ الباطني لا يَدُلّني ولا أدرِك به إدراكًا مباشرًا وجودَ علاقةٍ ضروريّةٍ بين الحركة والأمر.

ولكنّ الواقع: أنّ إنكار مبدأ العلّيّة لا يُخفِّف مِن المشكلة التي تواجه النظريّة الحسّيّة شيئًا؛ ١- فإنّ إنكار هذا المبدأ كحقيقةٍ موضوعيّةٍ يعني: أنّنا لم نُصَدِّق بالعلّيّة كقانونٍ مِن قوانين الواقع الموضوعي، ولم نستطع أنْ نَعرف ما إذا كانت الظواهر ترتبط بعلاقاتٍ ضروريّةٍ تجعل بعضها ينبثق عن بعض، ٢- ولكنّ مبدأ العلّيّة كفكرةٍ تصديقيّةٍ شيء، ومبدأ العلّيّة كفكرةٍ تصوّريّةٍ شيءٌ آخر، فهَب أنّا لم نُصَدِّق بعلّيّة الأشياء المحسوسة بعضها لبعض، ولم نكوّن عن مبدأ العلّيّة فكرةً تصديقيّة، فهل معنى ذلك: أنّنا لا نَتَصَوَّر مبدأ العلّيّة أيضًا؟!! وإذا كنّا لا نَتَصَوَّره فما الذي نفاه (دافيد هيوم)؟!! وهل ينفي الإنسان شيئًا لا يَتَصَوَّره؟!!

فالحقيقة التي لا مجال لإنكارها هي: أنّنا نَتَصَوَّر مفهوم العلّيّة سواء أصدّقنا بها أم لا، وليس تَصَوُّر العلّيّة تَصَوُّرًا مركَّبًا مِن تَصَوُّر الشيئين المتعاقبين، فنحن حين نَتَصَوَّر عِلّيّة درجةٍ معيّنةٍ مِن الحرارة للغليان لا نعني بهذه العلّيّة تركيبًا اصطناعيًّا بين فكرتَي الحرارة والغليان، بل فكرة ثالثة تقوم بينهما، فمِن أين جاءت هذه الفكرة- التي لم تُدرَك بالحسّ- إذا لم يكن للذهن خلّاقيّة وابتكار لِمَعانٍ غير محسوسة؟!!

ونواجه نفس المشكلة في المفاهيم الأخرى التي عرضناها آنفًا، فهي جميعًا ليست مِن المعاني المحسوسة، فيجب طرح التفسير الحسّي الخالص للتصوّر البشري والأخذ بنظريّة الانتزاع.

المبحثُ السادس:

نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّة.. اتّساقٌ مع البرهان والتجربة

الموضوعُ الأوّلُ: نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ.. إحساسٌ وابتكارٌ

نظرية الانتزاع: هي نظريّة الفلاسفة الإسلاميين بصورة عامّة، وتتلخّص هذه النظريّة في تقسيم التصوّرات الذهنيّة إلى قسمين، تصوّرات أوّليّة وتصوّرات ثانويّة:

[١]- **التصوّراتُ الأوّليّة:** هي الأساس التصوّري للذهن البشري، وتتولّد هذه التصوّرات مِن الإحساس بمحتوياتها بصورةٍ مباشرةٍ، فنحن نَتَصَوَّر الحرارة لأنّنا أدركناها باللمس، ونَتَصَوَّر اللون لأنّنا أدركناه بالبصر، ونَتَصَوَّر الحلاوة لأنّنا أدركناها بالذوق، ونَتَصَوَّر الرائحة لأنّنا أدركناها بالشمّ، وهكذا جميع المعاني التي نُدرِكها بحواسّنا، فإنّ الإحساس بكلّ واحد منها هو السبب في تَصَوُّره ووجودِ فكرةٍ عنه في الذهن البشري، وتَتَشَكَّل مِن هذه المعاني القاعدة الأوّليّة للتصوّر.

[٢]- **التصوّراتُ الثانويّة:** وهي التي يُنْشِئُها الذهن بناءً على القاعدة الأوّليّة للتَصَوّر، فبعد أنْ نُدرِك المعاني بحواسّنا فإنّنا نَتَصَوّرها، فيكون لها فكرةٌ ووجودٌ في الذِّهن، فتتشكَّل في الذهن قاعدةُ معانٍ تصوّريّة أوّليّة، ومِن هنا تبدأ وظيفة الابتكار والإنشاء، وهي التي تَصطلح عليها

هذه النظريّة بلفظ (الانتزاع)، فيُوَلِّد الذّهن مفاهيم جديدةً مِن تلك المعاني الأوّليّة، وهذه المعاني الجديدة خارجةٌ عن طاقة الحسّ وإنْ كانت مستنبطةً ومستخرجةً مِن المعاني التي يُقَدِّمها الحسّ إلى الذهن والفكر.

الموضوعُ الثاني:
نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..البرهانُ والتجربةُ..التوافقات التصوريّة

وهذه النظريّة تتّسق وتنتظم وتجتمع مع البرهان والتجربة، ويمكنها أنْ تُفَسِّر جميع المفردات التصوّرية تفسيرًا متماسكًا، فعلى ضوء هذه النظريّة نستطيع أنْ نفهم كيف انبثقت مفاهيم (العلّة والمعلول، الجوهر والعرض، الوجود والعدم، الوحدة والكثرة) في الذهن البشري، إنّها كلّها مفاهيم انتزاعيّة يبتكرها الذهن على ضوء المعاني المحسوسة.

فنحن نحسّ- مثلًا- بغليان الماء حين تبلغ درجة حرارته مئة، وقد يَتَكَرَّر إحساسنا بهاتين الظاهرتين- ظاهِرَتَي الغليان والحرارة- آلاف المرّات ولا نحسّ بعلّيّة الحرارة للغليان مطلقًا، وإنّما الذهن هو الذي ينتزع مفهوم العلّيّة مِن الظاهرتين اللتين يُقَدِّمهما الحسّ إلى مجال التصوّر.

ولا نستطيع في مجالنا المحدود أنْ نعرض كيفيّة الانتزاع الذهني وأنواعه وأقسامه؛ لأنّنا لا نتناول في دراساتنا الخاطفة هذه إلّا الإشارة إلى الخطوط العريضة[1].

---

(١) يُراجَع: الإشارات والتنبيهات، ٢/ ٣٥٣ وما بعدها، وشرح المنظومة، ٢/ ١٦٣.

المصادر

القرآن الكريم.

١- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا (ت ٤٢٧هـ)، الإشارات والتنبيهات، طهران، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢- أحمد أمين، وزكي نجيب محفوظ، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة، ١٩٦٧م.

٣- توفيق الطويل، أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م.

٤- جورج بوليتزر، المادّية والمثالية في الفلسفة.

٥- السبزواري، شرح المنظومة، طهران، مطبعة أمير، ١٤١٣هـ.

٦- صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم القوامي الشيرازي (ت١٠٥٠هـ)، الأسفار الأربعة.

٧- زكريا إبراهيم، كانت أو الفلسفة النقديّة، دار مصر للطباعة، نشر: مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.

٨- عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة، ١٩٧٠م.

٩-ماو تسي تونغ، حول التطبيق.

١٠-مدخل إلى فلسفة ديكارت، سلسلة المكتبة الفلسفية، الرقم٥، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.

١١-محمّد عبد الرحمن مرحبا، مِن الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

١٢-مصطفى غالب، أفلاطون، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٨م.

١٣-نهج البلاغة، شرح: الشيخ محمد عبده، مطبعة النهضة، نشر دار الذخائر، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

المحتويات

المقدّمة..... ٥

المبحثُ الأوّل

تساؤلاتٌ حول الإدراك..أساسُ المعرفة ١٣

المطلبُ الأوّلُ: الإدراكُ..تصوّرٌ وتصديقٌ ١٣
الإدراكُ تصوّرٌ وتصديقٌ ١٤
١- التصوّر ١٤
٢- التصديق ١٤
المطلبُ الثاني: تداعي المعاني..نظريّةُ الحسّيِّين..إلغاءٌ للتصديق ١٤

المبحثُ الثاني

المصدرُ الأساس للتصوّر..تصوّرٌ بسيطٌ ١٧

النقطةُ الأولى: المعاني التصوّريّةُ المتنوّعةُ..بسيطةٌ ومركَّبةٌ ١٧
القسم١: المعاني التصوّريّة البسيطة ١٧
القسم٢: المعاني التصوّريّة المركَّبة ١٧
النقطةُ الثانيةُ: التصوّراتُ البسيطةُ..تعدّدُ النظريّات في مصدرها ١٨

المبحثُ الثالث

نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..قضايا متهافتةٌ ١٩

الفرعُ الأوّلُ: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة.. تأسيسٌ على نظريّة المُثُل..١٩
القضية١ ..... ٢٠
القضية٢ ..... ٢٠
الفرعُ الثاني: نظريّةُ الاستذكار الأفلاطونيّة..خللٌ في فِهم الكلّيّات..... ٢١
أمّا القضيّة١ ..... ٢١
وأمّا القضيّة٢ ..... ٢١

المبحثُ الرابع

النظريّةُ العقليّةُ..تهافتٌ تحليلًا وفلسفةً ٢٣

الجانبُ الأوّل: النظريّةُ العقليّةُ..تأسيسٌ على الإحساس والفطرة ٢٣
منبعُ تصورات١- الإحساس ٢٣

منبعُ تصوّرات٢- الفطرة ٢٣
الجانبُ الثاني: النظريّةُ العقليّةُ..افتقارٌ إلى مسوِّغات القبول.....٢٤
تفنيدُ النظريّة العقليّة ٢٤
الطريقُ التحليلي.....٢٤
الطريقُ الفلسفي ٢٤

المبحثُ الخامسُ

النظريّةُ الحسّيّةُ..خطواتُ فشلِها.....٢٧

المحورُ الأوّلُ: النظريّةُ الحسّيّةُ..اقتصارُ الذهن على التصرّف ٢٧
أ- التركيبُ والتجزئةُ ٢٧
ب- التجريدُ والتعميمُ ٢٧
المحورُ الثاني: النظريّةُ الحسّيّةُ..تَبَنّي الماركسيّة.....٢٨
المحورُ الثالثُ: النظريّةُ الحسّيّةُ..خطواتُ إثباتِ فشلِها ٣٠
فَشَلُ النظريّة الحسّيّة ٣٠

المبحثُ السادسُ

نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّة..اتّساقٌ مع البرهان والتجربة ٣٣

الموضوعُ الأوّلُ: نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..إحساسٌ وابتكارٌ ٣٣
[١]- التصوّراتُ الأوّليّةُ ٣٣
[٢]- التصوّراتُ الثانويّةُ ٣٣
الموضوعُ الثاني: نظريّةُ الانتزاع الإسلاميّةُ..البرهانُ والتجربةُ..التوافقات التصوريّة.....٣٤

المصادر.....٣٥

المحتويات ٣٧